٣ ـ المهـــدي

وهو «محمد بن المنصور» أبي جعفر؛ عبد الله بن محمد بن عبد الله بن عباس وأمه «أروى بنت منصور» الحميرية، وكنيتها «أم موسى».

ذكر «السيوطي» في «تاريخ الخلفاء» في ترجمته للمهدي: وكان جواداً ممدحاً، مليح الشكل، محبباً إلى الرعية، حسن الاعتقاد، تتبَّع الزنادقة، وأفنى منهم خلقاً كثيراً، وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل في الرد على الزنادقة والملحدين، روى الحديث عن أبيه، ثم تابع «السيوطي» قوله: ولما شب «المهدي» أمَّره أبوه على طبرستان وما والاها، وتأدَّب، وجالس العلماء، وتميَّز، ثم إن أباه عهد إليه، فلما مات بويع بالخلافة، ووصل الخبر إليه ببغداد، فخطب الناس، فقال: إن أمير المؤمنين عبد دُعِيَ فأجاب، وأمر فأطاع، واغرورقت عيناه، فقال: قد بكى رسول الله ﷺ عند فراق الأحبة، ولقد فارقت عظيماً، وقُلِّدتُ جسيماً، فعند الله أحتسب أمير المؤمنين، وبه أستعين على خلافة المسلمين، أيها الناس! أسرُّوا مثل ما تعلنون من طاعتنا نهبكم العافية، وتحمدوا العاقبة، واخفضوا جناح الطاعة لمن نشر معدلته فيكم، وطوى الإصر عنكم، وأهال عليكم السلامة من حيث رآه الله مقدماً ذلك، والله! لأُفْنِيَنَّ عمري بين عقوبتكم والإحسان إليكم.

قال «نفطويه»: لما حصلت الخزائن في يد «المهدي» أخذ في رد المظالم، فأخرج أكثر الذخائر فغرَّقها، وبر أهله ومواليه[1]، وفي سنة أربع وأربعين ومائة تزوج «المهدي» من «ريطة بنت أبي العباس» السفَّاح فأولدها «علياً» و«عبيد الله»، وكانت له جارية يقال لها: «رحيم»، ولدت له «العباسية»، وتزوج «أم عبد الله بنت صالح بن علي» أخت «الفضل» و«عبد الله». واشترى جارية تدعى «الخيزران» فولدت له ابنيه «الهادي» و«الرشيد» و«البانوقة»، وفي سنة تسع

---

(١) تاريخ الخلفاء، ص: ٢٤٠.

وخمسين ومائة أعتقها وتزوجها، ونالت عنده حظوة عظيمة، وتحولت من الرق إلى الملك، وأصلها من «جُرَش» في اليمن، وكانت امرأة خليفة هو «المهدي» وأم خليفتين هما «الهادي» و«الرشيد» وكانت إلى جانب جمالها الفريد، تتمتع بذكاء حاد مَهَّد لها دخول ميدان الأدب والشعر، وتتلمذت على الإمام «الأوزاعي» فنهلت من فقهه حتى أصبحت إحدى فقيهات نساء عصرها، مما حدا بالمهدي إلى تقديمها على جميع نسائه، وكانت مسموعة الكلمة عند زوجها «المهدي»، وكان لا يرد لها طلباً لشدة ولعه بها، وإذا غابت كان يراسلها ويتبادل معها الأشواق والأشعار، وقد استأذنته مرة للذهاب إلى الحج فأذن لها، وبينما هي في مكة، استوحش لها فأرسل إليها بهذه الأبيات:

نحن في غاية السرور ولكن ... ليس إلا بكم يتم السرورُ
عيب ما نحن فيه يا أهل ودي ... أنكم غيَّب ونحن حُضُورُ
فأجِدُّوا في السير بل إن قدرتم ... أن تطيروا مع الرياح فطيرُوا

فردَّت على أبياته بهذه الأبيات:

قد أتانا الذي وصفت من الشو ... قِ فكدنا وما قَدَرنا نطيرُ
ليت أن الرياح كُنَّ يُؤَدِّيـ ... ـنَ إليكم ما قد يُكِنُّ الضميرُ
لم أزل صَبَّةً فإن كنت بعدي ... في سرور فدام ذاك السرورُ

وعلى الرغم من أن كلاً من «موسى الهادي» و«هارون الرشيد» ولداها إلا أنها كانت تميل إلى «الرشيد» أكثر، وكانت للمهدي ابنة تدعى «البانوقة» توفيت في حياته. واختلفت الروايات في وفاة المهدي، فقد أخرج «ابن جرير الطبري» في تاريخه: ذكر أن «المهدي» كان في آخر أمره قد غرم على تقديم « رون» ابنه، علي ابنه «موسى الهادي»، وبعث إليه وهو بجُرجان بعض أهل بيته ليقطع أمر البيعه ويقدم «الرشيد» فلم يفعل، فبعث إليه «المهدي» بعض الموالي، فامتنع عليه «موسى» من القدوم، وضرب الرسول فخرج «المهدي» بسبب «موسى» وهو يريده بجُرْجان، فأصابه ما أصابه.

وذكر «الباهلي» أن «أبا شاكر» أخبره ـ وكان من كُتَّاب «المهدي» على بعض دواوينه ـ قال: سأل «علي بن يقطين» «المهدي» أن يتغدَّى عنده، فوعده أن يفعل، ثم اعتزم على إتيان «ماسَبَذان»؛ فوالله! لقد أمر بالرحيل كأنه يُساق إليها

سوقاً، فقال له «علي»: يا أمير المؤمنين! إنك قد وعدتني أن تتغدَّى عندي غداً، قال: فَاحْمِلْ غداءك إلى «النهروان»، قال: فحمله فتغدَّى بالنهروان، ثم انطلق، وفيها توفي «المهدي».

وقال ابن جرير: عن واضح قهرمان «المهدي»، قال: خرج «المهدي» يتصيَّد بقرية يقال لها الرذُّ بماسَبَذَان، فلم أزل معه إلى بعد العصر.

وانصرفت إلى مضربي ـ وكان بعيداً من مضربه ـ فلما كان في السحر الأكبر، ركبت لإقامة الوظائف، فإني لأسير في برية، قد انفردت عمن كان معي من غلماني وأصحابي؛ إذ لقيني أسود عريان على قَتَدَ رَحْل، فدنا مني، ثمّ قال لي: أبا سهل!، عظَّم الله أجرك في مولاك أمير المؤمنين، فهممت أن أعلوه بالسوط، فغاب من بين يديَّ، فلما انتهيت إلى الرواق لقيني «مسرور» فقال لي: أبا سهل! عظَّم الله أجرك في مولاك أمير المؤمنين، فدخلت فإذا أنا به مسجَّى في قبة، فقلت: فارقتكم بعد صلاة العصر، وهو أَسَرُّ ما كان حالاً وأصحه بدناً، فما كان الخبر؟

قال: طردت الكلاب خلفه، واقتحم الفرس خلف الكلاب، فَدُقَّ ظهره في باب الخربة، فمات من ساعته.

وذكر أن «علي بن أبي نعيم المروزي»، قال: بعثت جارية من جواري «المهدي» إلى ضَرَّة لها بلَبإٍ فيه سم ـ اللبأُ: أول اللبن ـ وهو قاعد في البستان، بعد خروجه من عيساباذ، فدعا به فأكل منه، فَفَرِقَتِ الجارية أن تقول له: إنه مسموم. وحدثني أحمد بن محمد الرازي أن «المهدي» كان جالساً في عُلِّيَّة في مَصر بماسَبَذان، يشرف من منظرة فيها على سفله، وكانت جاريته «حسنة» قد عمدت إلى كمثراتين كبيرتين، فجعلتهما في صينية، وسَمَّتْ واحدة منهما، وهي أحسنهما وأنضجهما في أسفلها، وردت القمع فيها، ووضعتها في أعلى الصينية ـ وكان «المهدي» يعجبه الكمثري ـ وأرسلت بذلك مع وصيفة لها إلى جارية للمهدي ـ وكان يتحظَّاها ـ تريد بذلك قتلها، فمرت الوصيفة بالصينية التي فيها تلك الكمثري، تريد دفعها إلى الجارية التي أرسلتها «حسنة» إليها، بحيث يراها «المهدي» من المنظرة، فلما رآها ورأى معها الكمثري، دعا بها، فمد يده إلى

الكمثراة التي في أعلى الصينية، وهي المسمومة فأكلها، فلما وصلت إلى جوفه صرخ: جوفي، وسمعت «حسنة» الصوت، وأخبرت الخبر، فجاءت تلطُم وجهها وتبكي، وتقول: أردتُ أن أنفرد بك، فقتلتُك يا سيدي! فهلك من يومه.

وذكر «عبد الله بن إسماعيل» صاحب المراكب، قال: لما صرنا إلى ماسَبَذان دنوتُ إلى عنانه فأمسكت به، وما به علة؛ فوالله! ما أصبح إلا ميتاً، فرأيت «حسنة» وقد رجعت؛ وإن على قبتها المُسُوح، فقال «أبو العتاهية» في ذلك:

رُحْنَ في الوَشْيِ وأصبَحْـ ... ـنَ عليهن المُسُوحُ
كل نَطَّاح من الدَّهْـ ... ـرِ له يوم نَطُوحُ
لستَ بالباقي ولو عُمْـ ... ـرْتَ ما عُمِّرَ نُوحُ
فعلى نفسك نُحْ إن ... كنت لا بد تَنُوحُ

وذكر «صالح القارىء» أن «علي بن يقطين»، قال: كنا مع «المهدي» بماسَبَذَان، فأصبح يوماً، فقال: إني أصبحتُ جائعاً، فأُتي بأرغفة ولحم بارد مطبوخ بالخل، فأكل منه، ثم قال: إني داخل إلى البَهْوِ ونائم فيه، فلا تنبهوني حتى أكون أنا الذي أنتبه، ودخل البهو فنام، ونمنا نحن في الدار في الرواق، فانتبهنا ببكائه، فقمنا إليه مسرعين، فقال: أما رأيتم ما رأيت؟ قلنا: ما رأينا شيئاً، قال: وقف على الباب رجل، لو كان في ألف أو في مائة ألف رجل ما خَفِيَ عليَّ، فأنشد يقول:

كأني بهذا القصر قد باد أهله ... وأوحش منه ربعه ومنازلُهْ
وصار عميد القوم من بعد بهجةٍ ... ومُلْكٍ إلى قبر عليه جنادلُهْ
فلم يبقَ إلا ذكره وحديثه ... تنادي عليه مُعْوِلاتٍ حلائلُهْ

قالت: فما أتت عاشرة حتى مات، وكانت وفاته ـ فيما قال أبو معشر والواقدي ـ في سنة تسع وستين ومائة ليلة الخميس لثمان بقين من المحرم[1].

(١) تاريخ الطبري (٨/ ١٦٨ ـ ١٧١).